الطرق الصوفية في غرب إفريقيا

د. عبد الرحمن شيتو علاوي
عضو هيئة التدريس بكلية الفرقان للدراسات الإسلامية والتربوية، بوبو جولاسو بوركينا فاسو

إن البحث والدراسة عن الطرق والتشكيلات الصوفية في غرب إفريقيا، لتحظى بأهمية كبيرة؛ لكونها ظاهرة دينية لها امتداد تاريخي طويل، وحضور واقعي مؤثر، وبناء على ذلك سنلقي الضوء في هذه الدراسة على الصوفية وأهم تشكيلاتها في غرب إفريقيا، من خلال محورين رئيسين، كما يأتي:

المحور الأول: لمحة موجزة عن تاريخ التصوف في غرب إفريقيا:

١- تاريخ دخول التصوف إلى غرب إفريقيا.

٢- أبرز عوامل انتشار التصوف واستقراره في غرب إفريقيا.

٣- خصائص التصوف الإفريقي.

المحور الثاني: الطرق الصوفية في غرب إفريقيا: الواقع والمستقبل:

١- الطرق الصوفية في غرب إفريقيا.

٢- العلاقات بين الطرق الصوفية في غرب إفريقيا.

٣- مستقبل التصوف في غرب إفريقيا، حضوراً وتأثيراً.

ثم الخاتمة.

المحور الأول: لمحة موجزة عن تاريخ التصوف في غرب إفريقيا:

١) تاريخ دخول التصوف إلى غرب إفريقيا:

إن تحديد تاريخ دخول التصوف في منطقة غرب إفريقيا، يعد أمراً يصعب تحديده وضبطه، لكن من شبه المؤكد أنه دخل قديماً، وقصة الرجل الصوفي، الذي حل ضيفاً على ملك مملكة مالي وكان سبباً في إسلام الملك ورعيته، يستدل بها على قدم دخول التصوف في غرب إفريقيا، والقصة مشهورة نقلتها المصادر والكتب التاريخية، ومفاد القصة- كما يقول البكري في معرض وصفه للإسلام في هذه المملكة-: أن ملكهم كان يُلقب بـ«المُسْلماني» نسبةً إلى الإسلام، وذلك لأنه اعتنق الإسلام على يد رجل مسلم غريب نزل ضيفاً عنده.

ويُذكر في سبب ذلك أن إقامة هذا الغريب في بلاده صادفت مشكلة جدب وقحط وجفاف، حيث أمسكت السماء وانقطعت الأمطار في تلك الفترة، فقام الملك بتقديم أنواع شتى من القرابين للآلهة للاستسقاء، ولكن دون جدوى، واشتكى إلى ضيفه المسلم، فاشترط عليه ذلك الضيف المسلم اعتناق الإسلام، فاعتنقه الملك، فدعا المسلم واستسقى الله له، فاستجاب الله دعوته، فأمطرت السماء، وانتهى الجدب والقحط؛ فأمر الملك بتكسير الأصنام والتماثيل التي كانوا يعكفون عليها[١].

هذا الضيف المسلم كان له أسلوب خاص في طلب السقيا، فقد ورد في المصادر أنه أمر الملك أن يغتسل ويلبس ثوباً أبيض، ثم خرج به إلى أرض فلاة، وصلى معه ركعات، بصلاة بعيدة في كيفيتها وقدرها عن صلاة الاستسقاء المشروعة، ثم جلسا متضرعَيْن إلى الله بأسلوبٍ يدل على أنه كان صوفياً[٢].

وتذكر بعض المصادر أن القرن الخامس عشر يُعد هو بداية ظهور حركات الزهد، ومذاهب تصفية القلب وتزكية السلوك وتهذيبها، في مناطق غرب إفريقيا، بعدما وصلت إليها حركة الزعيم الروحي البغدادي عبد القادر الجيلاني، المعروفة بـ(الطريقة القادرية)، وذلك بجهود علماء ومتصوفين أفارقة، كالشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني والشيخ علي الكنتي والشيخ المختار الكنتي الكبير، وغيرهم، وفي ذلك يقول د. حوتية محمد: «وأصبح الشيخ علي الكنتي قطباً للطريقة القادرية، عندما انتقلت قبائل كنتية في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي إلى واحات توات، وحملوا معهم الطريقة القادرية. وفي هذه الواحات انتشرت القادرية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي، وكان شيوخ الكنتة يزورن برنو

(١) المسالك والممالك، البكري، ص٨٧٥.

(٢) المرجع السابق. ولكن يبدو هذا الاستنتاج بعيداً.. فلم يُذكر كيفية محددة للصلاة ولا التضرع، وهذا لا يقوم دليلاً قوياً على أن صاحبه صوفي. قراءات إفريقية.

يتبعون الطريقة القادرية»[١].

وظهرت بعد ذلك حركة زعيم قرية «عين ماضي» الجزائرية، الشيخ أبي العباس بن أحمد بن محمد بن مختار التيجاني، والتي عُرفت باسم (الطريقة التيجانية)، وأثبتت وجودها على أراضي غرب إفريقيا. وعلى الرغم من أن الأسبقية تُسجل للطريقة القادرية؛ فقد ثبت في بعض الوثائق أنها دخلت أراضي توات قبل زيارة الرحالة ابن بطوطة للتخوم الصحراوية منذ عام ١٣٥٤م[٢]؛ إلا أن التجانية تمكنت من السيطرة والتمكين لنفسها والانتشار في إفريقيا جنوب الصحراء، وفاقت أختها في سرعة غزو ديار شعوب غرب إفريقيا؛ وذلك بفضل جهود أتباعها، ومساعي مريديها في توحيد العمل وتحديد مساره، من أجل تحقيق أهدافها، والوصول إلى مآربها.

«وفي نهاية القرن التاسع عشر كانت التجانية قد فرضت نفسها باعتبارها الطريقة الأولى في المناطق التي أدخلت في الإسلام من غرب إفريقيا، في حين لم تعد القادرية- التي لم يعد لها أي اتصال بالزاوية الأم في بغداد- كفؤاً لها. فقد انقسمت هذه الطريقة الأخيرة إلى فروع متنافسة مثلما حدث في شنقيط، بينما حافظ تيجانيو بلاد السودان على علاقات قوية جداً مع زوايا «عين ماضي» وفاس وتلمسان وتمازين. وقد عرفت التجانية- مقابل القادرية التي ابتعدت جغرافياً عن قواعدها، وتجمدت بفعل انقساماتها الداخلية- نجاحاً سريعاً غير مسبوق في بلاد الزنوج»[٣].

٢) أبرز عوامل انتشار التصوف واستقراره في غرب إفريقيا:

لقد أسهمت عوامل عدة في شيوع الفكر الصوفي وانتشاره في غرب إفريقيا، وساعدت في ثباته واستقراره، **ومنها:**

١- تضافر جهود القبائل الكنتية التي نقلت الفكر الصوفي إلى المنطقة، ونشاطها في إنشاء الزوايا، والمراكز العلمية، وحلقات الدرس، من أجل نشر الفكر وتوسيع آفاقه.

٢- نشاط المريدين وأتباع الطرق المختلفة في تثبيت أركان مذهبهم.

٣- قرب منطقة غرب إفريقيا من منطقة توات التي استضافت الفكر لأول مرة.

٤- شعور المريدين والأتباع بالخطر الوثني والغزو الاستعماري والتنصيري لمنطقة غرب إفريقيا[٤].

٥- إكثار علماء الفكر الصوفي من الكتابة والتأليف.

٦- اعتقاد مريدي التصوف وأتباعه الجازم بأن ما يدعون إليه إسلام في صورة أخرى متمثلة في منهجية التربية وتزكية النفس.

٧- الاعتقاد بأن الوظائف المختلفة في الفكر الصوفي (الأوراد والأذكار والصلوات والخلوات) عوامل استجابة دعواتهم، وتقربهم إلى الله.

٨- فطرة التدين المغروزة في الإنسان الإفريقي أسهمت كثيراً في اعتناق الكثيرين الفكر الصوفي، الذي يركز في الإكثار من التربية الروحية والتزكية النفسية والوجدانية.

٩- تركيز الطرق الصوفية على بعض الأعمال

(١) د. حوتية محمد، الطرق الصوفية بإقليم توات وغرب إفريقيا - خلال القرنين ١٨/١٩، ورقة الملتقى الدولي الحادي عشر بعنوان: «التصوف في الإسلام والتحديات المعاصرة»- نوفمبر ٢٠٠٨م، جامعة أحمد دراية، أدرار - الجزائر.

(٢) علي تراوري، الإسلام والاستعمار في إفريقيا.. الشيخ حماه الله رجل الدين والمقاومة، ص١٩.

(٣) المرجع السابق، ص١٩.

(٤) المرجع السابق، ص١٥٩.

التعبدية والممارسات الدينية السهلة مقارنةً بغيرها؛ فالتزام قارئ القرآن الكريم بأحكام التجويد وشروط الترتيل لازم ومطلوب، ولكن لصعوبة ذلك على الكثيرين من الناس، وبخاصة غير العرب، آل بهم الأمر إلى تفضيل الأذكار والأوراد التي لا تكلفهم جهداً يُذكر، فسارعوا إلى الالتحاق بالطرق الصوفية التي تهتم بها[1].

١٠- الجوانب الروحية التي تُعد سمةً مميزة للصوفية، وجود هذه السمة وقربها من مفاهيم موجودة في الثقافة التقليدية الإفريقية، كانت أحد عوامل اقتراب الشخصية الإفريقية منها وتقبلها إياها[2].

٣) خصائص التصوف الإفريقي[3]:

تعرضت «الطرقية» في إفريقيا إلى ما أسماه أو جست نمتز H. Nimtz «الأفرقة»، ويمكن صياغة ذلك في سؤالٍ هو: ما طبيعة الاختلافات التي طرأت على الطُرق الصوفية عند دخولها إفريقيا؟

لعل الطرق الصوفية لم تختلف في إفريقيا عن أي موضع آخر فيما يتعلق بالجوانب الروحية التي تعد سمة عامة مميزة للصوفية، جانب آخر لم يختلف فيه التصوف في إفريقيا عنه في أي مكان آخر؛ وهو أنه على مستوى التجنيد (المريدين) كان المعيار الحاكم في ترقية الأفراد داخل الطريقة هو الورع والعبادة لا الأبعاد الدنيوية،

التشكيلات الصوفية في غرب إفريقيا حاضرة بحدها وحديدها، وقد تغلغلت تعاليمها في أوساط الشعوب الإفريقية

وقد وجد هذا جذوراً له في الثقافات الإفريقية التي شكلت البيئة التي احتضنت التصوف حال وصوله لإفريقيا.

أما الحديث عن الاختلافات الرئيسية بين الطرقية في إفريقيا وغيرها في مناطق العالم الإسلامي؛ فيحتاج إلى استقصاء موسع، ولا يمنع هذا من الحديث عن السمات المميزة للطرق التي قد تكون أكثر بروزاً وحضوراً فيها أكثر من الطرق في أماكن أخرى.

ويمكن إيجاز أهم هذه السمات المميزة فيما يأتي:

١- الشخصانية الكارزمية:

فجميع الكتابات التي تتناول التصوف في إفريقيا تقف بالأساس عند أسماء أشخاص بعينهم لا عند الطرق التي أسسوها أو التي ينتمون إليها. وفي تحليل أسباب انتشار هذه الزعامات ثمة مقولات من قبيل: أن دور التصوف في مناهضة تجارة العبيد، ولا سيما أفراد من الصوفية بعينهم، تبنوا ذلك خلال القرن التاسع عشر، مما أدى إلى التفاف المجتمع الإفريقي حول هؤلاء الأشخاص وتتويجه لهم بوصفهم زعامات، بل يذهب البعض إلى تصوير ذلك السبب كأحد الأسباب الأساسية في اتساع نشاط المتصوفين، وخاصةً في مالي.

سبب آخر تسوقه الظروف التاريخية التي

---

(١) د. موسى عبد السلام أبيكن، التصوف الإسلامي في غرب إفريقيا، مجلة حوليات التراث، العدد ٢٠١٣/١٣م، ص (٢٣-٢٤).

(٢) هشام جعفر، الملامح العامة للعمل الأهلي الإسلامي في القرن العشرين، مركز الحضارة للدراسات والبحوث، ص٢٧١.

(٣) يرى عدد من الباحثين أنَّ أبرز خصائص التَّصوف بإفريقيا كونه «صوفيَّة مجاهدة» militant sufism. قراءات إفريقية.

عاشتها دول إفريقيا، هو قيام الحركات الصوفية ومؤسسيها بمحاربة الاستعمار، وهو ما أدى إلى رد فعلٍ عكسي، هو معاداة الاستعمار لهذه الزعامات أو القيادات، فقوّى ذلك من مركزها داخل مجتمعاتهم الإفريقية.

ويمكن في هذا الإطار ذكر بعض أسماء كأمثلة لتلك الزعامات:

١- الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي.
٢- الشيخ سيدي المختار الكنتي.
٣- الشيخ محمد الحافظ بن المختار بن الحبيب العلوي.
٤- الشيخ محمد فاضل مامين.
٥- الشيخ محمد الأغظف الداودي.
٦- الحاج عمر تال.
٧- الشيخ أحمدو لبو.
٨- الشيخ إبراهيم انياس.
٩- الشيخ أحمد بمبا.
١٠- الشيخ حماه الله.

ملاحظةٌ مهمة تبدو هنا أيضاً، وهي أن وجود «قطب» أساسي للطريقة الصوفية مسألة تعرفها الطرق الصوفية كافة، بل إن انتساب الطريقة إلى القطب يُعد في بلدان (كمصر) من أهم أسباب قبولها والاعتراف بها كطريقة رسمية. لكن الطريقة تستمر في بيت القطب وفي أتباعه لسنوات وسنوات بعد رحيله، وهو الأمر الذي تفتقده إفريقيا جنوب الصحراء، فالشخصانية غلبت على المؤسسية؛ حيث الولاء للشخص أساساً ثم للتنظيم.

٢- الصراع داخل الطرق وفيما بينها:

عرفت بلاد مثل نيجيريا، والمغرب، والسنغال.. صراعات داخل الطرق الصوفية، أدت إلى عددٍ كبير من الانشقاقات. وعلى الرغم من أن الطرقَ الصوفية كافة في مختلف الأماكن تعرف ظاهرة الانشقاق؛ فإنه من اللافت في الحالة الإفريقية اتساع دائرة الانشقاقات، فلا توجد طريقة إلا وحدثت بها عدة انشقاقات، سواء من داخل البيت «البيت المؤسس للطريقة» أم من المريدين، ولا يكتفي الأفراد بالانشقاق، بل يكوّنون طرقاً جديدة تجتذب مريدين جدداً، أو ربما مريدين من الطريقة الأم نفسها.

مثل الطريقة «البكائية» التي تفرعت عن الطريقة القادرية، والطريقة «الفاضلية» التي تفرعت هي أيضاً عن القادرية، والطريقة «الحموية» التي تفرعت عن التيجانية، والطريقة «المريدية» التي تفرعت هي أيضاً عن التيجانية.

٣- ارتباط الكرامة بالتنجيم والسحر والخرافة:

حيث الواقع الإفريقي يعرف السحر ويتغذى على الخرافة؛ فإن الكرامة التي يعرفها تاريخ التصوف الإسلامي، وتمثل استثناءات معلومة في مسيرة التصوف، ولا تعول عليها الطرق الآن، وإنما تتذكر أقطابها وما تمتعوا به من كرامة، وصلوا لها بعد ممارسة رياضات روحية..

هذه الكرامة تحولت لدى أتباع الصوفية بإفريقيا جنوب الصحراء إلى نوع من الإيمان لدى المريد، الذي يعتقد أن شيخه الحالي، أو الذي قامت به الطريقة، يستطيع كشف الغيب والتنجيم والعلم بالمستقبل، واختلط ذلك لدى بعض القبائل بالسحر.

٤- ظهور زعامات نسائية صوفية:

وهي الظاهرة التي تكاد تختفي في دول كثيرة تعرف ظاهرة الصوفية كمصر وآسيا الوسطى...، فاشتهار النساء بالخلوة في إفريقيا مسألة تكاد تكون شائعة ومعروفة، وأشهر الأمثلة في هذا الصدد هي شخصية Sokhna Mogat Diop في السنغال، التي عُرف عنها دخولها الخلوة وممارستها لدورٍ فعّال بين الأتباع ورثته عن أبويها (وراثة البركة)، وإن أحجمت عن المكوث في

المساجد التي ارتبطت بالرجال.

حتى إن بعض الكتاب Saints رجح الدخول من مدخل «المتصوفات»، صاحبات الخلوات في إفريقيا، وإدارتهن لشؤون الطرق، لدراسة «السلطة النسوية في الإسلام»، ويعبر عن هؤلاء السيدات بالتعبير الغربي «القديسات»، ولا يمكن اعتبار الأسماء النسائية حالات، بل تتحول في بعض دول الغرب الإفريقي إلى ظاهرة.

٥- طقوس إفريقية في ممارسات الطرق:

تعرف الطرق أنشطةً كثيرة ذات أبعاد احتفالية (كالموالد، ومجالس الذكر، والحضرات...)، إلا أن إفريقيا عند دخول التصوف فيها قامت بإضافة ملامحها الخاصة إلى أنشطة الطرق، التي تنوعت بين الغرب والوسط والشرق الإفريقي؛ حيث يذكر عدد غير قليل من الكتاب الغربيين، عند استعراضهم لتاريخ التصوف، أو للتصوف في إفريقيا تحديداً، قيام الطرق الصوفية بالرقص والغناء المتقطع؛ وقد يُبرز ذلك أسباب تقبل القبائل الإفريقية للتصوف ونفوذه إلى الفرد الإفريقي؛ بحكم وجود أصل (أساس) لتلك الممارسات في الثقافة الإفريقية.

وقد يعكس ذلك خلطاً لمفاهيم بعضها ديني وبعضها ثقافي في تلك المناطق، يؤكد ذلك قيام الاحتفالات الصوفية بالجمع بين الرجال والنساء معاً (الرقص الجماعي يشملهم)، بل إنه في نظر عدد من فقهاء التصوف مجرد الاختلاط بين الرجال والنساء في أحد الأنشطة يوجب عقاب القائمين على الطريقة، فما بالنا بالغناء والرقص (مع ملاحظة أن الغناء هنا إنما يعني الذكر بطريقة منغمة).

وملاحظةٌ مهمة تُذكر في هذا السياق، وهي أن مسألة تحريف الشعائر شائعة في إفريقيا، بل إن في طقوس القداس المسيحي في عدد من كنائس غرب إفريقيا ثمة طقوس إسلامية (مرجعها الطرق الصوفية)، مثل تغطية النساء للرأس[١].

المحور الثاني: الطرق الصوفية في غرب إفريقيا: الواقع والمستقبل:

١) الطرق الصوفية في غرب إفريقيا:

لقد عرفت منطقة غرب إفريقيا منذ قرون مع دخول الإسلام فيها أنواعاً عديدة من الطرق الصوفية، ويُعد أهمها: الطريقة القادرية والطريقة التجانية، وفيما يأتي عرض لأهم قضايا هذه الطرق:

١- الطريقة القادرية:

الطريقة القادرية أحد أقدم الطرق الصوفية التي ظهرت في بغداد ما بين (١٠٧٧م-١١٦٦م)، على يد الملقب بمحيي الدين الشيخ عبد القادر الجيلاني، الذي عاش حياة الزهد والعزلة في المجتمع العراقي آنذاك[٢].

وعلى الرغم من بُعد العراق، عن منطقة غرب إفريقيا، فإنها تُعد أول طريقة صوفية وطئت تلك البقاع، وكان ذلك في القرن الرابع عشر الميلادي، «لقد كانت القادرية، قبل ظهور الحركة العمرية (حركة الحاج عمر تال) والجهاد الذي قام به الولي التكروري ابتداءً من ١٨٥٣م، هي الطريقة الدينية التي تعد الأكثر انتشاراً في إفريقيا الغربية، فقد كانت معروفةً في توات قبل زيارة ابن بطوطة للتخوم الصحراوية سنة ١٣٥٤م»[٣].

ويذكر المؤرخون والباحثون أن الشيخ سيدي المختار الكنتي الكبير هو أحد الذين عملوا على

---

(١) المرجع السابق، ص (٢٧١-٢٧٢).

(٢) Al-Marifag Jurnal Budaya, Bahasa, Dan Sastra, Arab, Vol 16, No 1, April 2019, p.43.

(٣) علي تراوري، الإسلام والاستعمار في إفريقيا، مرجع سابق، ص١٩.

نشـــر طريقة الشـــيخ عبد القادر الجيلاني في إفريقيا ما وراء الصحراء، وقد ورد أن المؤرخين أجمعوا علـــى أن الفضل الكبيـــر يرجع إليه في إرساء دعائم الطريقة القادرية في غرب إفريقيا، وبناء صرحهـــا، وإعطائها الطابـــع الإفريقي[١]. ومثله في ذلك مريـــد القادرية ومخلصها محمد عبد الكريم المغيلي، وذلـــك في القرن الخامس عشر الميلادي، وغيرهما من الأفذاذ من زعامات القادرية[٢].

تُعـــد الطريقة القادريـــة أم الطرق الصوفية في إفريقيا بوجهٍ عام، وعلى وجه الخصوص في غرب إفريقيا، حيث تأثرت شـــعوب غرب إفريقيا بعد دخول الإســـلام بطابع فكر الحركة القادرية، وبجهـــود أعلامها وجهابذة دعاتها من أهل الكنتة وغيرهم[٣].

وقد وصـــف بعض الباحثين دعـــاة القادرية بقوله: هم «من أحســـن مبشِّري الدين الإسلامي في غـــرب إفريقيا، من الســـنغال إلى بنين، وهم ينشرون الإسلام بطريقةٍ سلمية، بعيدة عن القتل والضرب»[٤].

وقد انتشر بفضل هذه الجهود مريدو الحركة القادريـــة وأتباعها على نطاقٍ واســـع، إلى أن بلغ عددهم حوالي نصف مليون بالســـنغال، وانتشروا في الدوائر الحكومية في مالي، ويلاحظ شيوعها أيضاً على طول نهر النيجر، وفي الكاميرون[٥].

الجهود المبذولة لنشر الطريقة القادرية في غرب إفريقيا:

أ- الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي:

يُعد المغيلـــي أحد الذين أدخلـــوا الطريقة القادريـــة في غـــرب إفريقيا، وعمل على نشـــر الإســـلام في أجزاء منها تحـــت ظلها، حيث بدأ الشيخ القادري المغيلي دعوته من منطقة توات في أدغال الصحراء الكبرى يدعو الناس إلى الإسلام، ويعلـــن براءته الكاملة من الوثنية والوثنيين، وأخذ يجوب قـــرى غرب إفريقيا ومدنها مروراً بالنيجر إلى نيجيريا.

وقد أســـهمت جهوده- بشكلٍ كبير- في نشر الإســـلام وطريقة الشـــيخ عبد القادر الجيلاني في المنطقة، حيث لم يتوان في اســـتغلال منطقة غـــرب إفريقيا، واتخاذها مقامـــاً جديداً لدعوته الإصلاحية، ومجالاً خصباً لتقوية سلطان الإسلام جنوباً، على ضوء التحديات التي يواجهها شمالاً.

ومـــن أجل بلوغ هـــذه الغايات؛ منح الشـــيخ المغيلي أخصب ســـنوات عمـــره لحركة الدعوة في الســـودان الغربي، بين أغاديـــس (النيجر)، وكانو (نيجيريا)، وســـنغاي (مالي)؛ فكُلِّلت جهوده بالنجـــاح، فقد تـــرك أثراً إســـلامياً كبيراً، وقام بتصحيح مفاهيـــم كثيرة كانت مغلوطة في أذهان العامة والسلاطين[٦].

لقد واجه الشـــيخ المغيلي الحكام والسلطات والملوك بدعوته، لجذب قلوبهم، واستمالتهم إلى قبول مـــا كان يؤمن به كَحلٍّ لمشـــكلات حياتهم الدينيـــة والدنيويـــة، وكان من دلائـــل تأثيره أن

(١) زهرة مسعودي، الطرق الصوفية بتوات وعلاقتها بغرب إفريقيا من القرن ١٨ إلى ٢٠م، رسالة قدمت لنيل درجة الماجيستير في جامعة أدرار الجزائرية/٢٠٠٩-٢٠١٠م، ص٧٠.

(٢) علي تراوري، الإسلام والاستعمار في إفريقيا، مرجع سابق، ص١٩.

(٣) زهرة مسعودي، الطرق الصوفية بتوات...، مرجع سابق، ص٥٢.

(٤) خضر حمادي، التصوف في إفريقيا خريطته ووظائفه السياسية، ٢٠٢٠/٠٢/١٠م: www.islamanar.com

(٥) Al-Marifag Jurnal Budaya, op.cit, p.43.

(٦) ينظر: سيدي اعمر شيخنا، مؤسسة التصوف في غرب إفريقيا الطرقية، مركز الجزيرة للدراسات، ٢٠١٩/٠٨/٢٧م.

الزعماء صاروا يكاتبونه ويسألونه في السياسة الشرعية وأمور الرعية، ومن ذلك:

١- جوابه برسالتين لسلطان كانو (نيجيريا)، محمد بن يعقوب المعروف بـ(رمفا) (ت ١٤٩٩هـ)، وهما: الرسالة المسماة: (تاج الدين فيما يجب على الملوك والسلاطين)، والرسالة المسماة: (ما يجوز للحكام في ردع الناس عن الحرام).

٢- جوابه للسلطان الأسكيا محمد، برسالة عُرفت بـ(أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي)[١].

ب- الشيخ سيدي المختار الكبير:

الشيخ سيدي المختار الكبير من أبرز رموز الطريقة القادرية الإفريقية، وأحد الأبطال والأقطاب الذين اضطلعوا بالطريقة القادرية في غرب إفريقيا، وقد حظي بمكانةٍ دينية مرموقة على صعيد النشاط الصوفي، وفي المجال العلمي؛ حيث عمل على إنشاء مراكز دعوية ومؤسسات تعليمية، أسهمت في نشر الفكر القادري بشكلٍ ملفت للنظر في إفريقيا ما وراء الصحراء، لأن الشيخ سيدي المختار أخذ على عاتقه مسؤولية تحمل نفقات منسوبي هذه المؤسسات التعليمية، معلمين ومتعلمين، فقد قام بتوفير احتياجاتهم من مأكل ومشرب وملبس، الأمر الذي أثر في سكان المنطقة، وأسهم في توسيع الدعوة القادرية، وأدى إلى امتداد تعاليمها إلى المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي في الجهة الغربية إلى النيجر شرقاً، ومن منطقة توات في الشمال إلى ما بعد نهري السنغال والنيجر في الجهة الجنوبية[٢].

إن فلسفة الشيخ المختار الكبير في الدعوة إلى القادرية امتازت بأسلوب الجذب بالحوار الحسن، والمخالطة الجيدة، الأمر الذي أكسب مريديه وأتباعه احترام أهل منطقة غرب إفريقيا، وقبول الأفكار التي يطرحونها، واستطاعوا أن يصلوا إلى قلوب الملوك والأمراء والسادة على اختلاف مشاربهم، وبادروا إلى مبايعتهم واعتناق طريقتهم، كما حصل لأمراء سكوتو، وأمراء بورنو، والقبائل الفولانية والبمبارا، وغيرهم من الشعوب الإفريقية[٣].

الطبعات المتفرعة عن الطريقة القادرية:

لقد تفرعت عن طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني، بعد استقرارها في غرب إفريقيا، بفضل جهود المريدين المخلصين، ومساعي الأتباع النشطين جملة من الفروع والطبعات، **ومن أهمها ما يأتي:**

أ) الطريقة القادرية البكائية:

يعد تأسيس هذا الفرع من جهود الشيخ سيدي أحمد البكائي الكنتي في شرق موريتانيا في القرن السادس عشر الميلادي، وبفضل مساعي الشيخ البكاي، وخلفائه كالشيخ سيدي المختار الكنتي وغيره، زحف الفكر القادري البكائي في منطقة غرب إفريقيا، وترسخت تعاليمه، وانتشرت من مركزها الأصل إلى الأراضي النيجيرية.

وقد كان تأثير هذه الطريقة كبيراً، ودورها عظيماً في إسلام عشرات آلاف من القبائل البمبارية في مالي والسنغال[٤].

ونقلت المصادر التاريخية أن «أحمد البكائي» هو من نشر الطريقة القادرية البكائية في غرب إفريقيا، وذلك في القرن الخامس عشر الميلادي، وبخاصة دولة السنغال، وقد عمل على جعل بعض المناطق السنغالية مراكز دعوته، ومنطلق نشاطه

(١) المرجع السابق.

(٢) زهرة مسعودي، الطرق الصوفية بتوات...، مرجع سابق، ص٥٢.

(٣) الهادي هارون، أ.د. صالح بوسليم، التأثير السياسي للطريقة القادرية في إفريقيا جنوب الصحراء في العصر الحديث، مجلة روافد للبحوث والدراسات - جامعة غرداية، العدد٢، ٢٠١٧م، ص٧٥.

(٤) Al-Marifag Jurnal Budaya, op.cit, p.43.

الصوفي؛ حيث صار لـــه أتباع ومريدون كثيرون، وظـــل هكذا إلى وفاتـــه، وقد خلفـــه في زعامة الطريقة القادرية بابا أحمد بن الشـــيخ ســـيدي المختار في منطقة تمبوكتو وما جاورها[1].

ب) الطريقة القادرية الفاضلية:

يُنســـب هذا الفـــرع من القادريـــة إلى مريد القادرية الشـــيخ محمد فاضل بن مامينا المتوفى فـــي العام (١٩٦٩م)[2]، وقد أسســـه وترك قيادة الدعوة والتوعية فيه لأبنائه، وقد حظي الشـــيخ «سعد بوه بن محمد فاضل» بشرف قيادة الحركة الفاضلية القادرية بالســـنغال ومـــا جاورها من البلدان.

عملت الفاضليـــة على التأثير فـــي أتباعها السنغاليين عبر مشربَيّن، مشرب الشيخ المحفوظ بن الطالب، ومشرب الشيخ سعد بوه، حيث صار لهما أتباع كثيرون، وامتد صيتهما إلى بلدان غرب إفريقيا وساحل العاج وغينيا وغيرها[3].

وقد تراجع نفوذ الطريقة القادرية فيما بعد، وأسهمت في ذلك عوامل متعددة أبرزها:

• ضعف الآليات التنظيمية للطريقة، حيث لا توجد أنظمة لتجميع وتوزيـــع أتباع الطريقة في دوائر ووحدات كما هو عند التجانية والمريدية.

• غيـــاب أو ضعف الاحتفاليات والمواســـم الكبرى للطريقـــة، وهي مناســـبات تضفي على الطرق الصوفية الأخرى حركية مســـتمرة، سواء تعلـــق الأمر بإحياء ذكرى المولـــد النبوي وموالد المشايخ الطرقيين الآخرين وغيرها.

• الثـــورات التصحيحية التي قادها شـــيوخٌ قادريـــون، من أجـــل تنقية التصوف مـــن البدع والانحرافات السلوكية.

٢- الطريقة التجانية:

الطريقة التجانية هي الطريقة الصوفية التي أسسها الشيخ أحمد التجاني في بلدة عين ماضي الجزائرية، فـــي القرن الثامن عشـــر الميلادي، وانتقلت فـــور ظهورها إلى أراضي غرب إفريقيا، بجهود أبرز مشـــايخها الذين لـــم يألوا جهداً في نشر الأفكار الأساسية التي تحملها الطريقة.

وقد أسهم في سرعة انتشارها في إفريقيا وراء الصحراء طابعها الإفريقي، فقد نشأت في إفريقيا، ومؤسســـها إفريقي، الأمر الذي سهل شيوعها في هذا القســـم من القارة السمراء، نتيجةً للتواصل الثقافـــي والتفاعل الحضاري الذي ربط شـــعوب شـــمال إفريقيا، بشـــعوب غربها.

وتنقل المصادر التاريخية أن الشيخ محمد الحافظ بن حبيب الله العلوي، والشـــيخ الحاج عمر تال، من الذين أســـهموا بشـــكلٍ كبير في نقل الطريقة التجانيـــة إلى غرب إفريقيا، وإن اختلفت في تحديد من له فضل الأســـبقية في جلبها.

يرى بعـــض المؤرخين أن فضـــل ذلك يعود إلى الشـــيخ محمد الحافظ الذي التقى بشـــيخ الطريقة نفســـه، في زيارةٍ خاصـــة له إلى فاس المغربية، واعتنق الطريقة على يد الشـــيخ أحمد التجاني الذي كلفه مهمة نشر الطريقة فيما وراء الصحراء، ومنحه «إجازة مقدم» جاء فيها: «اللهم انشـــر فضلك على محمد النبي الأمي، والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله. لقد فوّض معلمنا ووســـيلتنا مع الله العلـــي القدير، قطب الأقطـــاب أبو العباس أحمد بـــن محمد التجاني الحساني.... تلميذه العالم... الحافظ بن المختار بن حبيب الشنقيطي منح الورد لكل من يطلبه من

(١) زهرة مسعودي، الطرق الصوفية بتوات...، مرجع سابق، ص٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص٧٦.

(٣) Al-Marifag Jurnal Budaya, op.cit, p.43. & http://.2018-09-studies.aljazeera.net/ar/report/18

المسلمين»[١].

وقد أصبح الشيخ محمد الحافظ- بهذه الإجازة- ممثل الطريقة ومندوبها، وغادر مدينة فاس متجهاً إلى موريتانيا، وبدأ بدعوة أهله وقبيلته وعشيرته إلى اعتناق الطريقة الجديدة التي أتى بها من سفره، واستطاع أن يقنعهم، ودخل جميع أفراد قبيلته في الطريقة التجانية. وقد ظل بعد ذلك يعمل بكل جهد وكد في غرس أركان الطريقة، التي آمن بها وصدق، بها في موريتانيا والمناطق المجاورة لها، وصولاً إلى ضفاف نهر السنغال قبل وفاته في عام ١٨٣٠م[٢].

وقد وصلت الطريقة التجانية إلى السنغال بفضل جهود الشيخ «مولود فال» أحد مقدمي الشيخ محمد الحافظ، حيث عمل هذا الأخير على نشر تعاليم الطريقة، والتحق بالطريقة على يده كوكبة من الرجال النشطين، الذين أبلوا بلاء حسناً في نشر الطريقة في بلاد السنغال وما جاروها، وهم: الشيخ الحاج عمر تال، والشيخ «آلفا ما يورو يلي» عم الحاج مالك سي، والشيخ عبد الكريم النقيل شيخ فوتا جالون الشهير[٣].

وقد توسعت التجانية في غرب إفريقيا عبر شيوخ وعلماء ومدارس متعددة، وبلغت التجانية أوج شيوعها وانتشارها بظهور الشيخ إبراهيم نياس (توفي ٢٧ يوليو/ تموز ١٩٧٥م)، ولم يزل الأتباع والدعاة المخلصين للتجانية يقومون بدورٍ عميق في نشر التجانية في دول غرب إفريقيا وإلى المناطق الساحلية، مثل: الغابون وغانا وتوغو، وساحل العاج، وسيراليون. وفي بوركينافاسو كان للشيخين، أبوبكر ميغا وعبد الله دوكري دور مهم في مد ظلال التجانية بين السكان، وخلفهما أبناؤهما في مواصلة العمل الدعوي من أجل نشر الفكر التجاني[٤].

جهود أتباع الطريقة التجانية في نشرها:

وقد اجتهد عديد من مريدي الطريقة التجانية وأتباعها في تثبيت دعائم طريقتهم، وفي إرساء قوائمها، وفي إبراز معالمها، ونشرها في ربوع منطقة غرب إفريقيا، ومن هؤلاء الشيوخ الحاج عمر تال الفوتي.

الشيخ الحاج عمر تال:

يرى جلّ من كتب عن الطرق الصوفية في غرب إفريقيا أن الشيخ الحاج عمر تال من الذين عملوا على ترسيخ جذور مذهب الزهد، مستفيداً من معين الشيخ أحمد التجاني في غرب إفريقيا، وقد اعتُبر من الرموز البارزين الذين عرفت الطريقة على أيديهم الشيوع والانتشار والتمدد.

ومن الجدير بالذكر؛ أن الشيخ عمر تال كرّس حياته بأسرها للدعوة التجانية، بعد تتويجه ومنحه سلطة خلافة التجانية في بلاد السودان من قِبل أحد مشايخ الطريقة، وهو الشيخ محمد الغالي، أثناء لقائه به في الأراضي المقدسة.

وقد عمل على نصرة طريقة الشيخ أحمد التجاني ونشر الإسلام من خلالها، من منطقة الوديان الخصبة، في مسقط رأسه بفوتا، إلى جبال البانجاغارا، مروراً بالمرتفعات الجبلية في فوتا جالون ومنطقة كارتا، حيث كانت الوثنية مسيطرة على قلوب الشعوب هناك[٥].

وقد واجه الشيخ عمر تال في بلاد فوتا تحديات كثيرة، منها: عداوة أتباع الطريقة القادرية الذين يرون في دعوة عمر تال ذريعة بناء دولته وفرض نفسه على المنطقة. ومنها الحضور الاستعماري الذي يرى فيه الشيخ عمر تال روح

(١) الإسلام والاستعمار في إفريقيا، ص٥٢.

(٢) المرجع السابق، ص٥٣.

(٣) المرجع السابق، ص٥٣.

(٤) المرجع السابق، ص٥٣.

(٥) المرجع السابق، ص٥٤ وما بعدها.

المحتل والغاصب الذي يجب محاربته.

وقد خاض حروباً عديدة من أجل التصدي لتلك التحديات، التي كانت تعرقل مسيرة الدعوة الإسلامية عبر الطريقة التجانية في المنطقة، إلى أن سقط أمام قوة المستعمر الفرنسي في معركة حاسمة ألجأته إلى مغارة، وقام الأعداء بإشعال نار أمام المغارة، الأمر الذي أدى إلى موته مختنقاً في العام ١٨٦٥م، ومات شيخ من شيوخ الطريقة التجانية مخلفاً دولة إسلامية عظيمة، حلت محل كيان الطريقة القادرية في المنطقة[١].

وبعد وفاة الشيخ عمر تال؛ تم إرسال الشيخ سيدي محمد الأخضر كمبعوث خاص، لمهمة تعيين قائد جديد للطريقة في غرب إفريقيا، وقد وقع الاختيار على الشيخ حماه الله، وعيّن شيخاً للطريقة التجانية. وسنتحدث عن الشيخ الجديد الذي خلف الشيخ الحاج عمر تال، في مهمة الدعوة التجانية ونشر أفكارها في ربوع القسم الغربي للقارة السمراء، في مبحث فروع الطريقة التجانية.

التجانية وما تفرعت عنها من الطرق:

لقد تفرعت عن الطريقة التجانية في غرب إفريقيا كيانات صوفية عديدة، انطبعت بطابع الطريقة الأم، وعملت على مواصلة جهود أسلافها في نشر الفكرة وغرس جذورها، ومن هذه الفروع:

أ) الحموية:

الحموية هي كيان صوفي تجديدي النزعة، ينتسب إلى خليفة الشيخ الحاج عمر تال، وهو الشيخ حماه الله التجاني، الذي عاش ما بين (١٨٨٣م-١٩٤٣م)[٢]، وقد اتخذت الشعبة الحموية من مدينة «نيورو» في دولة مالي مقرّاً لها، حيث يقيم خليفتها الحالي، الشيخ محمدو بن الشيخ حماه الله، وكان واحداً من رموز السياسة والتأثير الروحي القوي في مالي بشكل عام وفي شرق موريتانيا بشكلٍ قوي وفعّال.

إن أهم ما تمتاز به هذه الشعبة التجانية عملها على إرجاع الفكر التجاني إلى أصله، المستنبط من المصادر الأولية للطريقة، وعلى رأسها كتاب (جواهر المعاني) المرجع الأصلي للطريقة التجانية، والذي لا يختلف عليه أحدٌ من مشايخ التجانية ومريديها ومقدميها.

وقد نقل الأستاذ علي تراوري الفكرة، حيث قال: «لم يدخل الشيخ حماه الله إصلاحات في التجانية، وما كان يريده فقط هو العودة بالطريقة إلى المذهب الأصلي لمؤسس الطريقة التجانية كما وُضع في (جواهر المعاني)، وهو الكتاب المرجعي الذي لا يعترض عليه أي تجاني»[٣]، ويزيد موضحاً الفكرة أكثر قائلاً: «وبشكلٍ أوضح: كان التجانيون قبل ظهور الشيخ حماه الله، بصفته خليفة للتجانية، يذكرون صيغة «جوهرة الكمال» اثنتي عشرة مرّة، يبدو أن لا أحد في إفريقيا الغربية قبل الشيخ الأخضر والشيخ حماه الله قد تساءل حول هذا الموضوع»[٤].

وقد أدى موقف الشيخ حماه الله إلى انقسامات في أوساط التجانية؛ فأصبح الذين يذكرون إحدى عشرة مرّة يُعرفون بـ«الحموية الإحدى عشرية»، أو «أصحاب الإحدى عشرة حبة». ويُعرف الذين يذكرون اثنتي عشرة مرّة بـ«العُمَرية» نسبةً إلى الشيخ عمر تال، أو «الحافظية الاثنا عشرية» نسبةً إلى الشيخ محمد الحافظ، أو «أصحاب

(١) ينظر: د السائح على حسين، لمحات من التصوف وتاريخه، ص٣٢٤.

(٢) زهرة مسعودي، الطرق الصوفية بتوات...، مرجع سابق، ص٧٥.

(٣) علي تراوري، الإسلام والاستعمار في إفريقيا، مرجع سابق، ص٩٩.

(٤) المرجع السابق.

الاثني عشرة حبة»[١].

وعلى الرغم من إشكاليات الانقسام التي عرفتها الحموية لحظة ظهورها؛ فإنها شقت طريقها نحو الانتشار والذيوع وإرساء قواعدها في مجتمع غرب إفريقيا، وقد حالفها الحظ في الحضور في كلٍّ من موريتانيا ومالي والنيجر والسنغال وبوركينا فاسو وساحل العاج ونيجيريا، وما زال الأتباع والمريدون في انتشارٍ في دول غرب إفريقيا[٢]، «وقد عمل الحمويون الذين تعرضوا- بقسوة- للاضطهاد الدائم والأعمى على تقوية طريقتهم في السر وتوسيعها. ولهذا السبب لا توجد لدينا إحصائيات موثوقة بعدد الحمويين، فهؤلاء كانوا أكثر مما توحي به التقارير السياسية في تلك الفترة..وقد أصبح الشيخ حماه الله: الزعيم الروحي المبجل لدى مئات الآلاف من الأتباع المتفرقين، لكن المنظمين على الأقل في سبع من مستعمرات إفريقيا الغربية الفرنسية»[٣].

ب) المريدية:

ينتسب هذا الفرع من التجانية إلى مؤسسه الشيخ أحمد بمبا السنغالي[٤]، الذي وُلد سنة ١٨٥١م، وأسس طريقته في العام ١٨٨٦م[٥]؛ ليستقر- بعد ذلك- في مدينة طوبى، التي أُخذ اسمها من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ٢٩].

وقد امتاز هذا التشكيل التجاني السنغالي بالمزج بين الفكر القادري والتجاني من حيث الأوراد والوظائف، وبإلزام الأتباع بطاعة الشيوخ؛ لأن ذلك يضمن التطهير والنقاء، والابتعاد عن الأمور الدنيوية- حسب اعتقاد تلك االطريقة.

وقد نشأت المريدية نشأةً سنغالية، وانتشرت أفكارها في القرى والمدن السنغالية، وحظيت بقبول أغلب الشعب السنغالي؛ لأن ظهورها تزامن مع الاحتلال الفرنسي، الأمر الذي دفعهم إلى الالتفات حول الشيخ المريدي، الذي كانوا يرون فيه المخلص والحامي الذي سيحميهم من الاستعمار الفرنسي واستغلاله ونهبه. وكذلك له أنصار ومريدون في دول غرب إفريقيا[٦].

٢) العلاقات بين الطرق الصوفية في غرب إفريقيا:

بالرغم من أن الطرق الصوفية وتشكيلات التصوف بكل أشكالها في غرب إفريقيا، سواء كانت الطرق الأم أم الطرق الفرعية، تسعى في مجمل حركاتها ونشاطاتها إلى تحقيق مقاصد مشتركة وأهداف موحدة وفقاً لما تعلنه، فإن هذا القاسم المشترك من الهدف لم يجعل العلاقات فيما بينها علاقات ودّ وإخاء، حتى بين الفروع التي انشقت عن طريقة واحدة، وإنما كان الذي يسودها في بعض الأحوال هو الاختلاف والمجاذبة والمطارحة بالأقوال والتّهم أحياناً، والصراع المسلح أحياناً أخرى، والذي يغذيه -أحيانا - الوجود الاستعماري والتنافس السياسي.

وأوضح مثال على ذلك: موقف شيوخ الطريقة القادرية السابق من دعوة الشيخ الحاج عمر تال، فقد كانوا يرون أن الأخير يسعى إلى تحقيق مصالحه بدعوته هذه إلى تأسيس طريقة جديدة، «وعلى صعيدٍ آخر سرعان ما أدرك أصحاب الحكومات الدينية الإسلامية في فوتا وماسنة، الذين كانوا قبل كل شيء رجال دولة، أن الولي

(١) المرجع السابق، ص١٠١.

(٢) زهرة مسعودي، الطرق الصوفية بتوات...، مرجع سابق، ص٧٠.

(٣) المرجع السابق، ص١٤٦.

(٤) ينظر: د السائح على حسين، مرجع سابق، ص٣٤١.

(٥) زهرة مسعودي، الطرق الصوفية بتوات...، مرجع سابق، ص٧٤.

(٦) المرجع السابق.

التكروري لديه طموحات سياسية، فكانوا حذرين للغاية من الحاج عمر؛ بل أصبحوا يناصبونه العداء عندما بدأ يجمع حوله عدداً كبيراً من الأتباع»[١].

وقد كانت الشعبة القادرية البكائية والتشكيل الذي يتزعمه الشيخ عمر تال في تبادل تهم مستمر، وكان كما قال الأستاذ علي تراوري: «وقد كان الصراع بينهما على قدم وساق، وحدثت القطيعة بينهما عام ١٨٦٢م». وقد قال الشيخ عمر تال للشيخ البكائي: «لقد خدعني البكائي، ولم أكن أعتقد أبداً أنه قادر على ارتكاب ذلك الجرم، لكنه لم يصل إلى مبتغاه، فلن يبقى إن شاء الله أبداً سيداً لهذه البلاد، وسيسود تجاني وليس قادرياً»[٢].

وقد رد البكائي على تصريح التجاني رداً قوياً وصارماً عندما قال: «إن الحاج عمر تال زنديق، طموح، يسعى فقط إلى خلق إمبراطورية له»[٣]، هذا فيما يتعلق بصراع الطرق الكبرى فيما بينها.

وأما صراع الفروع فيما بينها؛ فقد دونت المصادر أن اتهامات وُجهت إلى زعيم الشعبة الحموية من قِبل إخوانه التجانيين، الذين رأوا أنه أحدث في أمر الطريقة التجانية ما ليس منه، وابتدع فيها بطلبه من أتباعه ذكر الصيغة المقدسة[٤] إحدى عشرة مرّة بدلاً من اثنتي عشرة المعروفة قبله. وقد رد الشيخ حماه الله على اتهاماتهم بقوله: «اشهدوا عليّ- يا من تثقون في معلمي الشيخ أحمد التجاني في تسديد خطاكم المضطربة إلى سبيل الخلاص- بما يلي: أنني لم أُدخل شيئاً، ولم أبدل شيئاً على الطريقة التجانية، نجاني الله العظيم من محاولةٍ كهذه! بل إنني على العكس من ذلك أطلب منكم التقيد الصارم بأوامر كتاب (جواهر المعاني)، فهو وحده، بقراءته والتأمل فيه، الذي ينبغي أن يرشدكم في دينكم ودنياكم بعد القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، فالعودة إلى (جواهر المعاني) هي الوسيلة الوحيدة لدى التجاني للبقاء على الطريق الذي رسمه له شيخنا الكبير، واتباع السلوك الذي تحث عليه الثقة في الله»[٥].

مساعي التقريب بين الطرق الصوفية:

لقد ظهرت في الآونة الأخيرة جهود ومساع من قِبل بعض شيوخ الطرق الصوفية؛ لتجاوز الانقسام والاختلاف الذي كان يسود آفاق تلك التشكيلات، وقد تمثلت تلك الجهود في الإكثار من المصاهرة وتفعيلها من أجل تقوية عُرَى العلاقات وتعزيزها بين أتباع الطريقة الواحدة، وبين أتباع جميع الطرق الصوفية في غرب إفريقيا.

وقد كان الهدف الأسمى من ذلك خلق جو الألفة، وتفعيل التعايش السلمي، وضمان العمل المشترك على نشر الفكر الصوفي في المجتمع. وكان للشيخ إبراهيم نياس القطب التجاني في السنغال الفضل الكبير في تقرير هذه المبادرة، وظلت المبادرة تؤتي أكلها، حيث أبعدت- نوعاً ما- أجواء التناحر والشحناء والعداء التي كادت تُذهب ريح الطرق الصوفية في غرب إفريقيا[٦].

---

(١) علي تراوري، الإسلام والاستعمار في إفريقيا، مرجع سابق، ص٥٧.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) يشير إلى «جوهرة الكمال» عند التيجانية؛ ومصطلح «الصيغة المقدسة» ترجمة حرفية من الفرنسية formule sacree. قراءات إفريقية.

(٥) المرجع السابق، ص١٠٢. يبدو الأسلوب بعيداً عن أسلوب الأقدمين وتعبيرهم.. قد يكون النص ليس من لفظ الشيخ حماه الله. قراءات إفريقية.

(٦) محمد سالم محمد، الأبعاد الاجتماعية للتصوف في غرب إفريقيا: البنى والوظائف والعلاقات.
www.cheikh-maelainin.com/

٣- التصوف الإفريقي جهود ومساع:

إن الجهود والمساعي التي تُبذل في سبيل تحقيق أهداف ومقاصد محددة؛ غالباً ما تتطلب التجديد والتطوير وإدخال التحسينات في المناهج والأساليب المتخذة، والتدابير المسخرة في الوصول إلى تلك الأهداف والمقاصد، وإن كانت تحتفظ بأصالتها في المبادئ والثوابت، وقد لا تكون الطرق الصوفية مخالفة لهذه القاعدة شبه المطردة، ولذلك نجد هذه الطرق على ما كانت عليها ساعة التأسيس والوجود في أورادها ووظائفها وشعائرها المختلفة، لم يدخلها تجديد إلا فيما ندر، كالتحسينات التي أدخلها زعيم الشعبة التجانية الحموية عليها، عندما تبنى ذكر صيغة إحدى عشرة بدل الاثنتي عشرة المألوفة قبل مجيئه[١].

إن الجهود والأعمال التي اضطلع بها أتباع الطرق الصوفية في غرب إفريقيا، من أجل بقاء تشكيلاتهم وضمان استمراريتها، تكمن في قطاعات عديدة أهمها القطاع السياسي والاقتصادي وغيرهما، وسنكتفي بتسليط الضوء على القطاعَيْن المذكورَيْن:

الفكر الصوفي والسياسة:

إن إسهام الطرق الصوفية في القضايا السياسية، والمشاركة في إدارة شؤون البلاد، باتت من الأمور التي أشغلت الرأي العام في المجتمعات الإفريقية جنوب الصحراء، ولكن الأمر الذي ينبغي الإشارة إليه هو أن الفكر الصوفي لم يكن منعزلاً عن ممارسة السياسية في حقبةٍ من حقب تاريخه، وإن كانت بعض أدبيات الفكر الصوفي ومصادره لا ترى الممارسات السياسية أمراً يتماشى مع التصوف، لأنها من

إفريقيا عند دخول التصوف فيها قامت بإضافة ملامحها الخاصة إلى أنشطة الطرق

أمور الدنيا التي تعيق النفس الإنسانية عن بلوغ أهدافها ومقاصدها السامية التي هي الوصول إلى الله، لذا نجد المحاسبي في كتابه (آداب النفوس) يجعل السياسة سياسة النفس والقلب وليست سياسة أمور الدنيا، قال المحاسبي: «سياسة القلب تصفية القلب عن الحرص على الدنيا، وتعاهد يا أخي قلبك بأسباب الآخرة، وعرضه لذلك، وصُنْهُ من أسباب الدنيا، ومن ذكر يجر إلى الحرص والرغبة، ولا تأذن لقلبك في استصحاب ما يعسر طلبه، وينطفئ نور القلب من أجله...»[٢].

ولكن الأمر مختلف عند الإمام الغزالي الذي تطرق إلى السياسة في كتابه (الإحياء)، وأكثر من مناقشتها، فأخرجها من دائرة علوم الدين، ولكنه جعل الفقيه مرشداً للسياسي، وقد قال في كتابه: «إن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين في الدرجة الأولى، بل هو معين على ما لا يتم الدين إلا به»[٣]، وقال أيضاً: «فالفقيه هو العالم بقانون السياسة، وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات، فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق

(١) علي تراوري، الإسلام والاستعمار في إفريقيا، مرجع سابق، ص١٠٠.

(٢) آداب النفوس، ص٤٦.

(٣) إحياء علوم الدين، (١/ ٣٧).

وضبطهم لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا، ولعمري إنه متعلق أيضاً بالدين لكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، ولا يتم الدين إلا بالدنيا»[١].

أ) المتصوفة والقطاع السياسي في غرب إفريقيا:

بناء على أدبيات الفكر الصوفي؛ انقسم الصوفيون في غرب إفريقيا إزاء الممارسة السياسية إلى قسمين:

١- قسم اهتم بسياسة النفس، وتزكيتها وتقويمها، بعيداً عن سياسة الدنيا وما يتعلق بها، ويمثل هذا القسم شيوخ الطرق ومؤسسوها.

٢- قسم اهتم بسياسة الدين والدنيا، وتدخلوا في سياسة الدول ورعايتها، ووجهوا خطابات إلى الزعماء والأمراء والملوك بقصد توجيههم- في سياسة رعاياهم- إلى ما فيه صلاح العباد، ومنهم من ذهب أبعد من ذلك، حيث أسس الدول والإمارات والممالك. ويمثل هذا القسم الأتباع والمريدون الذين أتوا بعد شيوخ الطريقة، كما فعل الشيخ المغيلي والشيخ المختار الكبير، حيث وجهوا الرسائل والخطابات إلى ساسة عصرهم وصناع قرار زمانهم، كما سبق أن أشرنا إليه.

ويمثل القسم الذي اهتم بتأسيس الدول الشيخ أحمد لوبو الماسِّيني الذي أسس دولته الإسلامية في ماسنا في جمهورية مالي، والشيخ الحاج عمر تال الفوتي الذي أسس دولة قوية واجهت الاستعمار الفرنسي في عدة جبهات قتالية[٢].

وقد سارت الكتل الصوفية المعاصرة في غرب إفريقيا على منهج أسلافها في الاهتمام بالسياسة وممارستها، وقد أسهموا في سياسة دولهم، ونشأت بينهم وبين الساسة وصناع القرار علاقات تعاون، حيث سعت القوى السياسية لاستمالة شيوخ الطرق إلى الممارسة السياسية؛ من أجل كسب دعمهم وتوجيه الجماهير الملتفة حولهم لتأييدهم في قضاياهم السياسية[٣].

ولنا أكبر مثال في شيوخ الشعبة المريدية السنغالية، الذين كسبوا ولاء نسبة عالية من الأتباع والمريدين، وهو ما يستغله القادة السياسيون والرؤساء في البلد؛ لكسب الأصوات في الانتخابات، ولتنفيذ أجنداتهم السياسية.

وكذلك الطريقة الحموية في الجمهورية المالية، التي تتمتع بثقلٍ سياسي في الدولة بقوة مريديها وأتباعها، ولم يخف الدور الذي لعبته في الأحداث السياسية التي أطاحت برئيس الدولة إبراهيم أبوبكر كيتا. وكذلك الحال في أغلب الدول الإفريقية جنوب الصحراء[٤].

ب) الفكر الصوفي والقطاع الاقتصادي:

إن المتابع لحركات الطرق الصوفية في غرب إفريقيا يدرك حقيقة، مفادها أن الشيوخ والزعماء في التشكيلات الصوفية الإفريقية استفادوا من ولاء أتباعها ومريديهم في جمع ثروات هائلة من الصدقات والتبرعات والهبات، في المناسبات والنشاطات، والتجمعات والمهرجانات الدينية المختلفة، التي يفد إليها الأتباع والمريدون من مختلف دول غرب إفريقيا، فعلى سبيل المثال تتحول مدينة طوبى خلال «موسم ماغال»- ١٦ صَفَر من كل عام- إلى معرضٍ يصل زبائنه إلى أكثر من خمسة

(١) المرجع السابق.

(٢) محمد سالم محمد، الأبعاد الاجتماعية للتصوف في غرب إفريقيا، مرجع سابق ص١٠٠.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق.

ملايين زائر ومتبرك بمقام الشيخ أحمدو بمبا؛ حيث تنشط سوق النقل والملابس والمطاعم، ضمن سوق متعددة الملامح والأركان، الأمر الذي صير مدينة طوبى مركزاً أساسيّاً للتبادل التجاري، وظلت الخدمات الأساسية من ماء وكهرباء مجانية أو شبه مجانية في طوبى وضواحيها.

وكذلك مدينة كولخ التجانية في السنغال، التي يفد عليها أتباع الشيخ إبراهيم نياس، ويصل عددهم إلى أكثر من مليون زائر، وكذلك مئات المواسم والاحتفاليات التي تقام في أغلب مدن الغرب الإفريقي. وللطريقة الحموية التجانية نشاطٌ تجاريّ واسع في منطقة غرب البلاد، تضم آلاف التجار والمراكز التجارية التقليدية، وتسيطر بقوة على نقاط قوة في الاقتصاد المالي[1].

إن ثروة بعض التشكيلات الصوفية تُقدّر بالمليارات من السيفات؛ الأمر الذي أدى ببعضهم إلى امتلاك شركات تجارية كبرى، وقنوات إعلامية، وموارد مالية متعددة، ومشاريع تنموية تضمن استمرارية الطرق، واستمرارية النخب المنتمية إليها، وتضمن سير أعمالها ونشاطاتها.

٣) مستقبل التصوف في غرب إفريقيا، حضوراً وتأثيراً:

إن التشكيلات الصوفية في غرب إفريقيا حاضرة بحدها وحديدها، وقد تغلغلت تعاليمها في أوساط الشعوب الإفريقية، ولم تزل متغلغلة في دوائر النفوذ بشكلٍ كبير جدّاً وإليها تنتمي نخب كبيرة من مختلف قطاعات المجتمعات الإفريقية، وتجدها منخرطة في مفاصل بعض الدول، ومجالات التأثير الفعّال في المجتمعات، وقد عملت على فرض نفسها في دول غرب إفريقيا كالسنغال والنيجر ونيجيريا.

وقد ساعدها في ذلك إيمان عوام الناس وبسطائهم بقدرة شيوخ الطريقة وزعمائها على التأثير في حياتهم بالخروقات والقوى فوق الطبيعية، التي يدعيها بعض الذين حولوا الطرق الصوفية إلى مهرجانات للتسوق ومعارض كسب المصالح والفوائد. وكذلك أسهم في انتشارها إيمانهم بأن الطرق الصوفية تُعد الإسلام الصحيح الذي يبغونه؛ الأمر الذي جعلها أكثر تأثيراً في حياة الشريحة التي آمنت بها من أتباعها ومريديها.

ومع ذلك فإن ضمان مستقبل الطرق الصوفية في غرب إفريقيا رهين باهتمامها بالعلم والتحصيل المعرفي والإنتاج الأدبي والعمل الجاد، والتفاعل الإيجابي مع المتغيرات التي تحدث في العالم، ومستوى التعلم والوعي الذي يزداد انتشاره.

ختاماً:

أقول ملخصا أهم النتائج التي توصلت إليها:

إن التصوف ظاهرة دينية، ذات جذور ضاربة في القدم في غرب إفريقيا، وقد دخل التصوف في منطقة غرب إفريقيا، منذ القرن الخامس عشر الميلادي بجهود مريدي الطريقة القادرية، وتبعتها التجانية بعد ذلك، وقد عملت التشكيلات الصوفية على نشر الإسلام وتعاليمه في ربوع غرب إفريقيا، ومحاربة الوثنية وعبادة ما لا ينفع، وحاربت المشروع الاستعماري بكل ما أوتيت من القوة.

وللطرق الصوفية في غرب إفريقيا اليوم نفوذ وتأثير كبير في شتى مجالات الحياة، سواء في المجال السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي أو الثقافي، ولكن مستقبلها رهين بجهود الإصلاح والاهتمام بالعلم ■

(١) المرجع السابق.